﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشّورى: 52 - 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الإيحاء إلى الرَّسول الكريم كان بِطُرق الإيحاء إلى الرُّسل السّابقين

حدّدتِ الآيةُ السّابقةُ صورَ تكليمِ اللّه تعالى رُسُلَه وأنبياءَه عليهم الصَّلاة والسَّلام عمومًا، وقطعتْ بأنَّ هذه الصّورَ محصورةٌ في ثلاث صور، وعدَّدتها، ثمَّ تابَع السّياقُ هنا الإخبارَ بأنَّ إيحاء اللّه تعالى إلى رسوله محمَّد ﷺ أيضًا بهذه الصّورِ الثَّلاث.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: (وحي)، الوَحيُ: الإشارة، والكتابة، والرِّسالة، والإلهام، والكلام الخفيُّ، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك[1]، وهو في القرآن على خمسة أوجه، منها: الإرسال، قال تعالى: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ [النّساء: 163]، ومنها: الإلهام، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: 111]، أي: ألهمتُهم الإيمانَ[2]، فالوحي في قوله تعالى: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾، يعني: إنزالَه تعالى القرآن على الرَّسول ﷺ.

2) ﴿رُوحٗا﴾: (روح) أصلٌ كبير مطَّرِد، يدلُّ على سَعة وفُسْحة، وأصل ذلك كلِّه الرّيح، وأصلُ الياء في الرّيح الواو؛ إذ أصلُها رِوْحٌ، فصارت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، كما فعلوا مثل ذلك في

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (وحي).
(2) العسكريّ، الوجوه والنظائر: (وحي).

الميزان والمِيْعاد، فالرّوح: روح الإنسان، وإنَّما هو مشتقٌّ من الرّيح، وكذلك البابُ كلُّه[1]، والرّوح: الوحيُ، كقوله تعالى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [غافر: 15]، أي: يُلْقي الوحي من أمره[2]، والرّوحُ المضاف في قَوْلِه: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: 87] هوَ جِبْريلُ عليه السلام، والرّوحُ: عيسَى عليه السلام، والرّوحُ: حَفَظَةٌ على المَلائِكَةِ الحفظةِ على بَني آدَمَ، ويُرْوى أنَّ وُجوهَهُم مِثلُ وُجوهِ الإنس[3]، ومعنى قول الله تعالى: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[4]: هو القرآن، سُمِّيَ القُرآنُ روحًا؛ لأنَّ به حياةَ القُلوب.

3) ﴿أَمْرِنَا﴾: (أمر) أُصولٌ خَمسَةٌ، الأمرُ مِنَ الأُمورِ، والأمرُ ضِدُّ النَّهي، والأمَرُ - بِفَتْحِ الميم - النَّماءُ والبَرَكَةُ، والمَعْلَمُ، والعَجَبُ، فَأمّا الواحِدُ مِنَ الأُمورِ؛ فَقَولُهُم: هَذا أمرٌ رَضيتُهُ، وأمرٌ لا أرضاهُ، والأمرُ الَّذي هوَ نَقيضُ النَّهْيِ قَولُكَ: افعَلْ كَذا، وأمّا النَّماءُ؛ فيُقال: امرَأةٌ أمِرَةٌ، أي: مُبارَكَةٌ على زَوجِها، وقَد أمِرَ الشَّيءُ، أي: كَثُرَ، وتَقولُ العَرَبُ: مَنْ قَلَّ؛ ذَلَّ، ومَن أمِرَ؛ فَلَّ، أي: مَن كَثُرَ؛ غَلَبَ[5]، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾: من شأننا، وقضائنا، وقولنا[6].

4) ﴿نَّهْدِى﴾: (هدى) أصلان؛ أحدهما: التَّقدُّم للإرشاد، والآخر: بَعْثَةٌ لَطَفٍ، فالأوَّل قولهم: هديتُه الطَّريق هدايةً، أي: تقدَّمتُه؛ لأرشِدَه، وكلُّ متقدِّم لذلك هادٍ، وينشعب هذا، فيقال: الهُدى: خلاف الضَّلالة، والبابُ في هَذا القياسِ كُلِّه واحِدٌ، والأصلُ الآخَرُ: الهَديَّةُ: ما أهدَيْتَ مِن لَطَفٍ إلَى ذي مَوَدَّةٍ، يُقالُ: أهدَيْتُ أُهدي إهداءً، والمِهْدَى: الطَّبَقُ تُهْدي عَلَيهِ[7]، فالهُدى في قوله تعالى: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ من الأصل الأوَّل، والمعنى: نُرشد، ونَدُلُّ به مَن نشاء إرشادَه ودلالتَه من عبادنا.

5) ﴿ٱلْأُمُورُ﴾: الأمْرُ مُفرد، جمعُه: أمور، وهو الحالُ أو الشَّأن، ومنه: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود: 97]، ويُراد بالأمر القيامة كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، والقضاء كقوله:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(2) الأنباري، الزّاهر: 2/ 375.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (روح).
(4) الخطابيّ، غريب الحديث: 3/ 253.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 299.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدى).

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: 3][1]، والدّين نَحْو: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 48]، أي: دينُ الله والقُرْآنُ ومُحَمَّدٌ ﷺ، والقَوْلُ نَحْو: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: 66]، والعَذابُ نَحْو: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: 22][2]، والأمور في الآية: هي الشُّؤونُ والأحوال والحقائق، وكلُّ موجودٍ مِنَ الذَّوات والمعاني[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمانُ معونةٌ رحمانيَّة يوفِّق اللهُ إليها مَن شاء من عباده

وكما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك - أيُّها النَّبيُّ - أوحينا إليك قرآنًا من عندنا، تحيا به القلوبُ والأرواح، وتحيا به مصالحُ الدُّنيا والدِّين، ما كنتَ تدري قبلَه ما الكتبُ السّابقة ولا الإيمان ولا الشَّرائع الإلهيَّة، ولكن جعلنا القرآنَ ضياءً للنّاس، نهدي به هدايةَ معونةٍ وتسديد، ونوفِّق إلى الإيمان به مَن نالَتْهُ مشيئتُنا من النّاس إلى الصِّراط المستقيم، وإنَّك - أيُّها الرَّسول - لَتَدُلُّ، وتُرْشِدُ هدايةَ إرشادٍ ودلالةٍ إلى سبيل قويم، وحقيقةٍ سمحاء، ودينٍ خالصٍ بإذن الله - وهو الإسلام - صراطِ اللهِ الَّذي له ملكُ جميعِ ما في السَّماوات وما في الأرض، لا شريك له في ذلك، ألا إلى الله - أيُّها النّاسُ - تَرْجِعُ جميعُ مآلاتِ الأمور كلِّها، من الخير والشَّرِّ، فيُجازي كُلًّا بعمله: إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فَشَرٌّ[4]، فالآيتان الكريمتان تُرشدان إلى بيان مِنَّةِ اللهِ على رسولِهِ ﷺ بإنزالِ القرآنِ الَّذي صار به عالِمًا بالكتابِ وعالِمًا بالإيمانِ، وأنَّ الهدايةَ والضَّلالَ بمشيئةِ الله، وأنَّ هَدْيَ النَّبيِّ ﷺ هَدْيٌ مستقيمٌ لا اعوجاجَ فيه، فليس فيه اعوجاجٌ في الخَبَرِ، وليس فيه اعوجاجٌ في الشَّرائعِ، بل كلُّها مَبنيَّةٌ على العدْلِ والفضْلِ[5].

(1) عُمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أمر).
(2) أبو البقاء، الكلّيّات: (أمر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 156.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 150، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 780، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسر، ص: 489.
(5) العثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 360، و361.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ حاليَّةٌ، وصاحبُ الحال هو ﴿رُوحٗا﴾، والمعنى على هذا: (وأوحينا إليك روحًا من أمرنا حالةَ كونِه مشبهًا للوحي المعهود مع مَن سبقك من الأنبياء والرُّسل بإرسال رسول، وهو (جبريل) ﷺ؛ ليوحيَ بإذنه ما يشاء)، أو (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه رأسُ الآية السّابقة: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ [الشورى: 51]، "وهذا دليلٌ على أنَّ القرآن أُنزل من عند الله تعالى، أعقب به إبطالَ شبهتِهم الَّتي تَقدَّم لإبطالها قولُه تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ [الشورى: 51] الآية، أي: كان وحينا إليك مثلَ كلامِنا الَّذي كلَّمْنا به مَن قَبْلَك، على ما صرَّح به في قولِه: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النّساء: 163]، والمقصود من هذا هو قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾"[1].

القرآن أُنزِل من عند الله تعالى كما أُنزِلت الكتبُ الَّتي سبقته

دلالةُ (الكاف) في: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ﴾:

(الكاف) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ للتَّشبيه؛ تعقد مشابهة بين وحي الله تعالى إلى سيِّدنا محمَّد ﷺ، ووحيه سبحانه إلى الرُّسل السّابقين؛ إذ يقول تعالى في الآية السّابقة: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ [الشورى: 51] الآية، ويقول هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الآية، والمعنى: وكما كنّا نوحي إلى سائرِ رسلِنا، كذلك أوحَينا إليك - أيُّها النَّبيُّ - هذا القرآنَ وحيًا ورحمةً مِن أمرِنا[2]، والمشابهةُ هنا في الإيحاء إلى الرَّسول ﷺ بطريق مَلَكِ الوحي الَّذي كان يوحَى بطريقه إلى المُرسَلين السّابقين؛

الإشارةُ لما بعد الإيحاء، فوَحيُ الله لرسوله أعزُّ وخيرٌ وأشرفه ولا يماثله غيرُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 150.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 541.

إذ يقول تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: 51]، ثمَّ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: من خلال رسول هو أمين الوحي جبريلُ عليه السلام، قال ابن عاشور: "يجوز أن تكون الإشارةُ إلى ما يأتي مِن بعدُ، وهو الإيحاء المأخوذ من ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: مثلَ إيحائنا إليك أوحينا إليك، أي: لو أُريد تشبيه إيحائنا إليك في رِفعة القَدْر والهُدى ما وُجِد له شبيهٌ إلّا نفسُه، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، والمعنى: إنَّ ما أوحينا إليك هو أعزُّ وحي وأشرفه، بحيثُ لا يماثله غيرُه، وكِلا المَعْنَيين صالحٌ"(1).

مرجعُ الإشارة في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، ولطيفةُ إيثار التَّعبير بها:

من مزايا الإشارة ضغطُ الكلام الكثير في لفظ يسير، يوفِّر العناية على تَلَقّي الحُكْم

الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ترجع إلى الصّور الثَّلاث المذكورة في الآية السّابقة: ﴿وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: 51]، قال الطَّيبيُّ: "وما اجتمعت تلك المراتب الثَّلاث إلّا لسيِّدنا صلواتُ الله عليه، حيثُ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الآية، والله أعلمُ بأسرار كلامه"(2)، ولطيفةُ إيثار التَّعبير بالإشارة هنا ضغطُ تلك الصّور الثَّلاث في لفظ الإشارة الموجز اليسير (ذا)؛ توفيرًا لعناية السّامع على تَلَقّي جملةِ الخبر: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾.

سرُّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿أَوْحَيْنَآ﴾:

عظمةُ الفاعل تَـدْعَـم تحقُّقَ إخبارِه

في صياغة الفعل (أوْحَى) ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ - برغم أنَّه تعالى كان لا يزال (يوحي) حينَها - إلماحٌ إلى اطِّراد الوحي على هذه الأنماط الثَّلاثة منذ بَدء الإيحاء، من أوَّل رسول وإلى آخره، إلى سيِّدنا محمَّد ﷺ، وإفادةٌ بأنَّ تحقُّقَ ذلك تحقُّقٌ يدفع كلَّ شكٍّ فيه، وممّا يدعم تلك الدَّلالة إيثارُ الفاعل هنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 151.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب: 14/ 89.

ضميرَ العظَمة - كما سيأتي تفصيلُه قريبًا؛ إن شاء الله تعالى - ففيه إشعارٌ بأنَّ ما أخبر ﷻ به من أخبار محقَّقٌ مقطوع بها، وهكذا تتآزر عناصرُ التَّركيب على تقرير الحَدَث وتأكيدِ وقوعِه.

وجهُ إسناد الإيحاء إلى ضمير العظَمة في: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾:

تعظيمُ الموحَى بـه، وتشريف الموحَى إليه

إسنادُ فعلِ الإيحاء إلى ضمير العظَمة في جملة: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ يُضفي على الموحَى به - القرآن الكريم - تعظيمًا وإجلالًا، فهو كلامُ الله العظيم ﷻ، وكلامُه العظيم لا بدَّ أن يكون عظيمًا؛ لأنَّه يأخذ صفتَه، وكذلك إسنادُ فعلِ الإيحاء إلى ضمير العظَمة في جملة: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ يُضفي على الموحَى إليه ﷺ تكريمًا وتشريفًا، فهو عبدُه ورسولُه وخاتَمُ رسلِه وأنبيائه، وفي ضمير العظَمة الجمعيِّ - إلى ذلك - إفساحُ مجال الفاعلين؛ ليشملَ أمينَ الوحي جبريل عليه السلام، بخلاف ضمير العظمةِ المُفرَد، ففعلُه يختصُّ به تعالى، لا دورَ لأحدٍ آخرَ فيه، وفقَ تعليلِ ثعلب النَّحوي: "كلُّ ما كان في القرآن (فعلنا)؛ فهو أمرُه تعالى بأعوانه، أمر به جبريلَ وميكائيلَ وملائكتَه، وما كان (فعلتُ)؛ فهو ما تَفرَّد به سبحانه"[1].

دلالةُ التشبيه في: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾:

القرآنُ أعزُّ وحي وأشرفُه؛ بحيثُ لا يماثله غيرُه

التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ واقعٌ في مطلق الإيحاء؛ أي: إنَّ إيحاءَه تعالى إلى رسوله الخاتم ﷺ كان في إطار الوسائل الثَّلاث، ﴿وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: 51]، فالموحَى به - القرآن الكريم والشَّريعة الحنيفيَّة - مختَلِفٌ في كثير من تفاصيله؛ إذِ الشَّريعة الخاتَمة متضمِّنة ما يَصْلُح للنّاس جميعًا إلى قيام السّاعة، والشَّرائعُ السّابقةُ كانت مُحَيَّنَةَ الصَّلاحيَّةِ بأحاينيها غيرَ صالحةٍ لغير أُمَمِها؛ لذلك يقال: الوحي إليه ﷺ متفرِّد عن الوحي إلى الرُّسل السّابقين

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (روح).

ﷺ، بحيثُ يصير المعنى: "لو أُريد تشبيهُ إيحائنا إليك في رِفعة القَدْر والهُدى، ما وُجِد له شبيهٌ إلّا نفسه، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، والمعنى: إنَّ ما أوحينا إليك هو أعزُّ وحْيٍ وأشرفُه بحيثُ لا يماثله غيرُه، وكِلا المعنيين صالح"[1].

نُكْتَةُ تقييد الإيحاء بـ ﴿إِلَيْكَ﴾، ولطيفةُ تقديمه على المفعول:

الرَّسول الكريم أفضلُ مَن أوحِيَ إليه، ودفعٌ لتهمة الكافرين له بادِّعاء الرِّسالة

في تقييد الإيحاء بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْكَ﴾، وتقديمِ القيد على المفعول في جملة: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾ تنويهٌ بمكانته ﷺ عند ربِّه تعالى، وأنَّه ﷻ أوحى إلى رسوله الخاتم ﷺ لا إلى غيره ﴿رُوحًا﴾ من أمره، وذلك يُبرز فضيلتَه ﷺ على جميع النّاس، وفي ذلك - أيضًا - تقريرٌ يدفع عنه ﷺ تُهمةَ الكافرين بادِّعاء الرِّسالة واختلاقِ الموحَى به - القرآن الكريم - فتقديمُ القيد لافتٌ، وناظرٌ إلى مثل هذه التُّهمة داحضٌ لها.

حكمةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رُوحًا﴾:

القرآنُ الكريم تحيا به مصالحُ الدُّنيا والدِّين؛ لِما فيه من الخير الكثير

في اصطفاء وصف ﴿رُوحًا﴾ للموحَى به على الرَّسول ﷺ دون (قرآنًا) أو (كتابًا)، تنبيهٌ إلى قوَّة الصِّلة بين القرآن الكريم وروح الإنسان، بحيثُ تجدُ الرّوحُ في القرآن سعادتَها وطمأنينتَها كأنَّه تَوْءَمُها، وفي الذِّكر الحكيم ما يَلْفت إلى ذلك؛ إذ يقول اللّهُ تعالى هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، ويقول في قصَّة خَلْق آدمَ ﷺ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 29]، فظهر بذلك انتماؤهما إلى مصدر واحد، وانبثاقُهما من مشكاة نورٍ وهدًى واحدة، وإلى ذلك يُفصِح وصفُ القرآن الكريم بـ ﴿رُوحًا﴾ أنَّ به حياةَ الدّين، وأنَّه حياةُ الذِّكر والشَّرف للمؤمنين[2]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 151.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 143.

فـ "الخَلْق يَحيَونَ به في دينهم، كما يحيا الجسد بالرّوح"[1]، فـ "فيهِ حَياةٌ مِن مَوْتِ الكُفْرِ"[2]، و"القرآن روحٌ من روح الله، والّذي حمله إلى الرَّسول ﷺ روحٌ من روح الله كذلك، فهو روح يحمله روح، وهذا يعني من جهة أخرى أنَّ القرآن الكريم حياةٌ وروحٌ تَلْبَس النُّفوسَ المستعِدَّةَ لاستقبالها، كما تَلْبَس الحياةُ والأرواحُ الأجسادَ بعد أن يتمَّ تكوينُها، وتُصبحَ مهيَّأةً لاستقبالها، وكما أنَّ كلَّ جسد يلبس من الأرواح بِقدر ما هو مستعدٌّ له، كذلك النُّفوس يُفاض عليها من روح القرآن على قدر ما هي مستعِدَّة له ومهيَّأةٌ لِقَبوله"[3]، وكذلك القرآن الكريم "تحيا به مصالحُ الدُّنيا والدّين؛ لِما فيه من الخير الكثير والعِلْم الغزير، وهو مَحْضُ مِنَّةِ الله تعالى على رسوله ﷺ وعبادِه المؤمنين، من غير سببٍ منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾"[4].

دلالةُ تنكير ﴿رُوحًا﴾:

القرآنُ الكريم نمطٌ جديد وحيد في بابه، فريدٌ في خصائصه وصفاته

في تنكير المفعول ﴿رُوحًا﴾ في جملة: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا﴾ تفخيمٌ لأثره في حياة المؤمنين به، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، كما في تنكيره ترهيبٌ للكافرين به، بأنَّه عليهم دمارٌ وخَسار، كما قال تعالى في تكملة الآية الكريمة نفسها: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء: 82]، كما أنَّ في تنكير ﴿رُوحًا﴾ تعظيمًا لشأنه بين الكتب السَّماويَّة، فضلًا عن غيرها من الكتب على الإطلاق؛ فالتَّنكير يلفِتُ إلى تفرُّد هذا الموحَى به إليه ﷺ، وأنَّه نمطٌ جديد وحيد في بابه، فريدٌ في خصائصه وصفاته، ويُؤكِّدُ الواقع أنَّ الكتاب العزيز كذلك فعلًا، فقد وقف الخَلق جميعًا أمامَ عظمته منذ أُنزل على الرَّسول ﷺ مشدوهين، مضطرّين إلى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 234.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 624.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 98.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 762.

إظهار العجز عن مجاراته في لغته ومعانيه، وتشريعاته وأحكامه، وأخلاقه وآدابه، وسُموِّ مقاصدِه وسعادةِ الأخذ به في حياة الإنسان.

وجهُ تسميةِ القرآن: ﴿رُوحًا﴾:

القـرآنُ الكريم سببٌ في الحياة الأُخرويَّة الهانئة

سُمّي القرآنُ ﴿رُوحًا﴾؛ "لكونه سببًا للحياة الأُخرويَّة الموصوفة في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: 64]، والرَّوحُ التَّنفُّسُ، وقد أراحَ الإنسانُ؛ إذا تنفَّس، وقوله: ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾ [الواقعة: 89]، فالرَّيحانُ: ما له رائحةٌ، وقيل: رِزق"[1]، فتسميةُ القرآنِ ﴿رُوحًا﴾ "استعارةٌ أو مجازٌ مرسل؛ لِما فيه مِن الهداية والعِلْم الَّذي هو كالحياة"[2].

موقعُ الجارّ والمجرور ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾:

تلاقي دلالاتِ الوحي واتِّساقُ نصوصِ الدّين يؤكِّدان أنَّه كلام الله ودينُه الحقُّ

جاء القيد بالجارِّ والمجرور ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ وصفًا للنَّكرة ﴿رُوحًا﴾، كأنَّه قيل: روحًا حكيمًا أو عزيزًا أو نحوه، ويُحتَمل أن يكون الجارُّ والمجرور ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ حالًا[3]، والمعنى: وكذلك أوحينا إليك روحًا حالةَ كونِه من عندنا، على أنَّ الوصف بالجارِّ والمجرور يُتيح دلالةَ الأمر، ودلالةَ الإضافة إلى ضمير العظَمة في ﴿أَمۡرِنَاۚ﴾، إضافةً إلى ما يفيده حرف ﴿مِّنۡ﴾ مِن تبعيض، والتَّبعيض هنا يقرِّر اتِّساقَ نصوصِ الدّين، وتَلاقي دلالاتِ الوحي الكريم مع قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف: 109]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾ [لقمان: 27]، و﴿مِّنۡ﴾ في القيد بالجارِّ والمجرور ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ تلفتُ إلى عظَمة العِلْم الإلهيِّ وسعته، وأنَّه الَّذي لا يُحدُّ بحدود: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: 7]، وإلى

(1) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن، ص: 369.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 377.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 53.

ذلك، ففي هذا القيد ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ إفساحٌ لدخول السُّنَّة الشَّريفة في حيِّز الموحَى به إليه ﷺ، ففي الذِّكر الحكيم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النّجم: 3 - 4]، وفي الحديث الشَّريف: يقول رَسولُ اللهِ ﷺ: «ألا إنّي أوتيتُ الكِتابَ ومِثْلَهُ مَعَهُ، ألا إنّي أوتيتُ القُرآنَ ومِثْلَهُ مَعَهُ»[1]، وذلك التَّلاقي والاتِّساق بين نصوص الدّين الحنيف ممّا يقرِّر صِدقَ نسبةِ القرآن الكريم إلى قائله ﷻ، وصِدقَ رسالةِ النَّبيِّ ﷺ، ويَدحض افتراءَ الكافرين في تكذيبهم إيّاه ﷺ في دعوته، ويحتمل أن يُراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الكلامُ، فيكون المعنى: وكذلك أوحينا إليك روحًا مِن كلامنا، فتكون ﴿مِّنْ﴾ هنا لابتداء الغاية، أي: أوحينا إليك روحًا مبتدَأً مِن كلامنا، ومنبثِقًا من قرآننا.

نُكْتَةُ استعمال ﴿أَمْرِنَا﴾ عوضَ (وَحْينا):

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بمفردة (أمر) في القيد ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾؛ لِما لها من إشارات قويَّة، تُضفي على الوحي خطورةً وجلالًا، وتوجب له توقيرًا لا يُفهم من أيِّ تعبير آخر، كما لو قيل: (وكذلك أوحينا إليك روحًا من وحْينا)، كما أنَّ في مفردة (الأمر) إلماحًا إلى وجوب توقير الوحي الإلهيِّ واتِّباعِه؛ لأنَّه كلمة اللّه العزيز الغالب، فلا يَسَعُ العقلاءَ معاندتُه أو التَّورُّكُ عليه؛ لأنَّه حُكمٌ مبرم، وأمْرٌ نافذ.

يجب أن يكون أمرُ الله تعالى نافذًا، وحُكمُه مُبرمًا

لطيفةُ إضافةِ الأمر إلى ضمير العظمةِ في: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾:

في إضافة الأمر إلى ضمير العظمةِ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ إضفاءٌ لمعاني التَّوقير والتَّعظيم على هذا الوحي الشَّريف؛ لأنَّ المُضاف يَكتسب من المُضاف إليه صفاتِه؛ فتُضفي تلك الإضافةُ على (الأمر) هنا من صفات اللّه تعالى العِزَّةَ والعُلوَّ والحِكْمة والجلال

كلامُ الله تعالى يتَّصف بصفاته، مِـن الـعِـزَّة والعُلوِّ والحِكْمة والجَلال وغيرِها

(1) ابن حنبل، المسند أحمد: 28/ 410، وبرقم: 17174.

وغيرَها من صفاته العُلا ﷻ، و"الأمر هنا بمعنى الشَّأن العظيم، كقولِهم: أمِرَ أَمْرُ فلانٍ، أي: شأنُه، وقولِه تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر: 4]"[1].

عِلَّة فصل جملة ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ عمّا قبلها:

فُصِلت جملةُ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ عن جملة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال؛ إذ إنَّ الثّانية مقرِّرةٌ لمعنى الأولى، فإنَّه ﷺ ما كان يعلم هذا العِلمَ العزيز الحكيم، ولا يدري عن الكتابة ولا القراءة، فتأكَّدَ أنَّ هذا الَّذي جاء به وحيٌ من عند الله تعالى، وأنَّه ﷺ لا يمكنه إبداعُه، ولا ادِّعاؤُه.

أُمِّيَّةُ الرَّسول الكريم تؤكِّد أنَّ القرآن العظيم وحيٌ لا يمكنه إبداعُه ولا ادِّعاؤه

معنى ﴿مَا﴾ في: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ نافيةٌ، تنفي عن الرَّسول ﷺ صراحةً العِلْمَ، بل الدّرايةَ بالكتابِ والكتابة، والقرآن والقراءة، وهذا دليلٌ عقليٌّ منطقيٌّ على صِدقه ﷺ، والمعنى: (إذا كان محمَّد ﷺ أُمِّيًّا لا يكتب، ولا يقرأ، ولا يدري عن ذلك شيئًا، ثمَّ جاءكم فجأةً بأرقى مكتوبٍ وأفخمِ مقروءٍ، ألا يدلُّكُم ذلك على صِدقه في دعواه النُّبوَّةَ والرِّسالةَ وتبليغَه عن الله تعالى رسالتَه؟) فقد أجمع العلماء على أنَّه "لا يجوز أن يُقال: الرُّسلُ كانوا قبل الوحي على الكفر"[2]، أمّا ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ فالرَّسول ﷺ "لا يَشُكُّ في أنَّه كان لا يدريه، ولا يعلمه حتّى أدراهُ، وأعلمَهُ، أمّا ﴿ٱلْإِيمَٰنُ﴾ حيثُ أُخبِر أنَّه لا يدريه؛ فهو يحتمل: ما كنتَ تدري ما الإيمان في حقِّ اللِّسان؟ أو: ما كنتَ تدري ما الإيمان في حقِّ الإيمان؟ أو ما كنتَ تدري ما الإيمانُ في حقِّ قَدْرِه ومحلِّه ومنزلتِه عند الله تعالى؟"[3].

تعلُّمُ الكتابِ والقرآنِ من أجلِّ النِّعم الَّتي تستوجب الشُّكرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 151.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 614.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 143.

وفي إخبار الله تعالى رسولَه ﷺ بقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ امتنانٌ من الله تعالى عليه؛ إذ يحتِّمُ معناه: "أوحيناه إليك يا محمَّد من غير سببٍ منك"[1]، فاستوجبَ الشُّكرَ والصَّبرَ على تبليغه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكَوْن الماضي في: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾:

نفيُ الكتابة عنه ﷺ أدْخـلُ في الإعْجـازِ، وأدَلُّ على صِحَّةِ نبوَّتِه

من معاني عدم درايته ﷺ بـ "معنى عدم دراية الكتاب: عدمِ تعلُّق علمِه بقراءة كتابٍ أو فهمه، ومعنى انتفاءِ دراية الإيمان: عدم تعلُّقِ علمِه بما تحتوي عليه حقيقةُ الإيمان الشَّرعيِّ من صفات الله وأصول الدّين، ولذلك قال: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾، ولم يقل: (ما كنتَ مؤمنًا)، والرُّسل معصومون من الشِّرك قبلَ النُّبوَّة، فهُم موحِّدون لله، ونابذون لعبادة الأصنام، ولكنَّهم لا يعلمون تفاصيلَ الإيمان، وكان نبيُّنا ﷺ في عهد جاهليَّةِ قومِه يعلم بُطلانَ عبادةِ الأصنام، وإذ قد كان قومُه يُشركون مع الله غيرَه في الإلهيَّة، فبُطلانُ إلهيَّة الأصنام عندَه تمحِّضُه لإفراد الله بالإلهيَّة لا محالة"[2]، ويفيدُ فعلُ الكونِ الماضي الدَّلالةَ على استصحابه ﷺ عدمَ الدِّرايةِ بالكتاب والإيمان منذ ولادته وحتّى لحظةِ الإيحاء إليه بالرّوح من أمره تعالى؛ "لأنَّه ﷺ كان أُمِّيًّا لا يقرأ، ولا يكتب، وذلك أدْخَل في الإعجاز، وأدلُّ على صحَّة نبوَّتِه"[3]، و"أمّا الجانبُ التَّشريعيُّ؛ فلم يكن يعلم منه شيئًا إلى أن تَلقّاه وحيًا من ربِّه سبحانه، في أحكام الصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحَجِّ، وفيما أحلَّ اللّهُ تعالى، أو حَرَّم، فنَفْيُ عِلْمِ النَّبيِّ ﷺ بالإيمان قبلَ الوحي ليس على إطلاقه، وإنَّما هو نفيٌ لِتمام العِلْم بالإيمان كلِّه عقيدةً وشريعةً"[4].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 762.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 152.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 624.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 98.

حكمةُ التَّعبير بالدّراية، ولطيفةُ صوغِها مضارعًا:

الرُّسُـل قبلَ الوحي مؤمنون، والمضارعةُ فيها امتنان

اللّافتُ اصطفاءُ النَّظمِ الكريم التَّعبيرَ بِنَفْي (الدِّراية) دون (العِلْم) في جملة: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾؛ وذلك أنَّ نفي الدِّراية خِلْوٌ مِن التُّهمة له ﷺ؛ لأنَّه نَفْيٌ لدرايته الكتابَ أصلًا، ونفيٌ لدرايتِه تفاصيلَ الشَّريعة السَّماويَّة، قالوا: أو في الآية حَذْفُ المضاف، أي: ولا تدري أهلَ الإيمان، يعني: مَن الَّذي يؤمن، ومَن الَّذي لا يؤمن؟ فقد أجمع الأصوليّون على أنَّ الرُّسُل قبلَ الوحي كانوا مؤمنين، ونبيُّنا محمَّدٌ ﷺ كان يعبد اللّهَ قبلَ الوحي على دين إبراهيمَ عليه السلام[1]، وصِيغَ الفعلُ ﴿لَا تَدْرِى﴾ مضارعًا لاستحضار فترة عدمِ الدّرايةِ، وكأنَّها ماثلةٌ وقتَ الخطاب، برغم أنَّه ﷺ الآن يدري، ويعلم، وقد أوحِي إليه أرقى كتاب، وتَوثَّق في نفسه أنقى إيمان، لكنَّ في المضارعة تمييزًا للمِنَّة الإلهيَّة، وتكريمًا لجناب النَّبيِّ ﷺ.

معنى ﴿مَا﴾ في: ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾:

استفهاميَّةٌ لبيان عدمِ علمِه ﷺ بالكتاب قبلَ الوحي

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ استفهاميَّةٌ واردة على أصل وضعها؛ بيانًا لعدم علمه ﷺ بالكتاب العظيم قبلَ الوحي إليه بالرِّسالة، ولا بتفاصيل الشَّريعة، وما يتعلَّق بها من جميع أركان الإيمان.

دلالة جملة ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ على الحال:

ما أوتيَهُ الرَّسولُ من الشَّريعة من مواهب الله تعالى؛ امتنانًا عليه وعلى أُمَّتِه

سبقت الإشارةُ إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ "في موضع الحال من ضمير ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، أي: أوحينا إليك في حال انتفاءِ علمِكَ بالكتاب والإيمان، أي: أفضنا عليك موهبةَ الوحي في حال خُلوِّك عن عِلْم الكتاب وعِلْم الإيمان، وهذا تَحَدٍّ للمُعاندين؛ ليتأمَّلوا في حال الرَّسول ﷺ، فيعلموا أنَّ ما أوتيَه من الشَّريعة والآداب الخُلُقيَّة هو من مواهب الله تعالى، الَّتي لم تَسبِق له مزاولتُها، ويتضمَّن امتنانًا عليه وعلى أُمَّتِه المسلمين"[2].

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 61.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 152.

دلالةُ تكرار النَّفي في: ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾:

في جمع نفي درايته ﷺ عن ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ إلى نفي درايتِه عن ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾، دلالةٌ على الارتباط الوثيق بينهما، والتَّنبيه إلى أنَّ معرفة الكتاب هي السَّبيل إلى معرفة الإيمان، وأنَّ الإيمان الصَّحيح لا بُدَّ أن يُؤَسَّس على الكتاب، وأنَّ مهمَّة الكتابِ تَصحيحُ مسارِ الإيمان وتثبيتُ أركانه، وصونُه منَ الاختلال، ودليلٌ على أنَّ اقترانَهما ذِكرًا دليلُ وجوبِ اقترانِهما واقعًا؛ فهما ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ و﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ الكاملان، الحقيقان بذلك التَّعريف المخصَّص لهما من بين كلِّ كتاب وإيمان، و"إدخالُ (لا) النّافية في قوله: ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ تأكيدٌ لِنفي درايتِه إيّاه، أي: ما كنتَ تدري الكتابَ ولا الإيمانَ؛ للتَّنصيص على أنَّ المنفيَّ درايةُ كلِّ واحد منهما"[1] على استقلال؛ تعديدًا للمِنَنِ الرَّحمانيَّة عليه وعلى أُمَّته ﷺ.

الإيمانُ الصَّحيح يُـؤَسَّـس على الكـتـاب، وفيه تَصحيحُ مسارِ الإيمان وتثبيتُ أركانِه

نُكْتَةُ حذفِ متعلِّق الدِّراية:

حُذِف متعلِّق الدِّراية في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾؛ والتَّقدير: ما كنتَ تدري ما الكتابُ لولا الرِّسالةُ، ولا الإيمانُ لولا البلوغُ، أو: ما كنتَ تدري ما الكتابُ لولا إنعامُنا عليك، ولا الإيمانُ لولا هدايتُنا لك[2]، وفي حذْفِ هذه المتعلِّقات تصفيةٌ للأسلوب ممّا يُشوِّش على توفير العناية على ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾، و﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾؛ لبيان عظمتهما في حياة الإنسان، وإن كانا بإنعام الله تعالى وهدايته.

لأخـذِ الكـتـاب والإيـمـان أثـرٌ عـظـيـم فيـمـن يوفَّق إليهما

بلاغةُ المجاز بلفظ ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ على الشَّريعة:

ذهب بعضُ العلماء إلى أنَّ الإيمان هنا هو "الإيمان بالله تعالى، وهذا يعرفُه الرَّسولُ ﷺ بعد بلوغه وقبلَ نبوَّتِه، أو أنَّ ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 150.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 212.

دينُ الإسلام، وهذا لا يعرفُه إلّا بعدَ النُّبوَّة"[1]، و﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ بالمعنى الثّاني كنايةٌ عن الشَّريعة بكلِّ تفاصيلها العَقديَّةِ المعنويَّة، والفعليَّةِ الحِسِّيَّة؛ لأنَّه لازمٌ من لوازمها، وهو "رأسُها وأساسُها، وقيل: أراد بـ ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ هنا الصَّلاة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 143]، يعني: الصَّلاةَ، فسمّاها إيمانًا"[2]، وفي التَّعبير بـ ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ عن (الشّريعة) إيحاءٌ بأنَّ ممارسةَ تكاليفِ الشَّريعة، والتزامَ حدودِها وتفاصيلِها كما عَلَّمها الوحيُ الرَّسولَ ﷺ، جانبٌ من جوانب الإيمان، وأنَّ جانب العقيدةِ في ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ لا يَكْمُل ولا يُقبَل ما لم يُتَوَّج ويُفَعَّل بإقامة تفاصيل الشَّريعة المبنيَّة عليه، فكلاهما يُتمِّم الآخَرَ، ويُنجِحُ مقصِدَه.

الإيمانُ والشَّريعة أحدُهما يُتمِّم الآخر؛ ولا يَكْمُل، ولا يُقبَل أحدُهما دونَ الآخر

معنى (الواو) في: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ عاطفةٌ على رأس الجملة السّابقة ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾؛ فبينهما توسُّط بين الكمالين - بمصطلح أهل المعاني - لأنَّ كلتَيهما إخبارٌ من الله تعالى، مخاطَبُ بها الرَّسولُ ﷺ، وإن أُريدَ بالخطاب كفّارُ قريش؛ لأنَّه ﷺ يعلم ذلك، ولا يجهله، ولا يدفعه.

دلالةُ (لَكِنْ) في: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾:

(لكن) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ استدراكيَّةٌ، والمعنى: ما كنتَ تدري ذلك، ولكنَّنا تداركناكَ، وعلَّمناكَ، وجعلنا هذا الوحيَ نورًا لكَ، ولِمَن نشاء من عبادنا، فـ "الاستدراكُ هنا ناشئٌ على ما تضمَّنَتْهُ جملةُ: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ لأنَّ ظاهر نفي درايةِ الكتاب أنَّ انتفاءَها مستمرٌّ؛ فاستُدرِك بأنَّ الله تعالى هداه بالكتاب وهدى به أُمَّتَه، فالاستدراكُ واقعٌ في المَحْزِّ، والتَّقدير: ما كنتَ

اللهُ تعالى يتدارك أولياءَه فيعلِّمُهم، ويوفِّقُهم للعمل بالعِلْم

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 212.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 624.

تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، ثمَّ هديناكَ بالكتاب ابتداءً، وعرَّفناكَ به الإيمانَ، وهَديتَ به النّاسَ ثانيًا، فاهتدى به مَن شِئْنا هدايتَه، أي: وبقي على الضَّلال مَن لم نشأ له الاهتداءَ، كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 26]"[1].

بلاغةُ التَّشبيه في: ﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ تشبيهٌ للوحي بالنّور بليغٌ، فكلاهما هُدًى يَهدي به اللهُ تعالى مَن يشاء من عباده، **والأوّل:** نورٌ معنويٌّ يُنير دروبَ الأرواحِ لِنَفْس الإنسان، **والثّاني:** نورٌ حِسّيٌّ يُنير دروبَ الحياة لجسد الإنسان، فوجهُ الشَّبهِ بينهما مطلقُ الهداية المتوفِّرةِ في كلٍّ منهما، ولمّا كان النّور الحسّيُّ أوضحَ للإنسان؛ لأنَّه يكشف لِعَينَيْهِ الأشياءَ، فلا يتصادم معها؛ قيس عليه النّورُ المعنويُّ الَّذي يكشف لروح الإنسان دروبَها الخاصَّةَ بها، فلا تتصادم، أو تتخبَّطُ في غياهب عالَمِها، وإنَّما تسير على هُدًى وتبيان فيما يخصُّها، كَسَيْرِ الجسدِ على هدًى وتبيان فيما يَخصُّه، و"النّور وسيلةُ الاهتداء، ولكن إنَّما يَهتدي به مَن لا يكون له حائلٌ دونَ الاهتداء، وإلّا لَم تنفعه وسيلةُ الاهتداء، ولذلك قال تعالى: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، أي: نَخلق بسببه الهدايةَ في نفوس الَّذين أعددناهم للهُدى مِن عبادنا، فالهدايةُ هنا هدايةٌ خاصَّةٌ، وهي خَلْقُ الإيمانِ في القلب"[2]، أمّا مَن كان لديه حائلٌ من رؤية الإيمان؛ فلا يظفر بذلك النّورِ، ولا بتلك الهدايةِ.

يَهتدي بنور الإيمان مَن لا يَحول دونَ اهتدائِه به حائلٌ

إيثارُ التَّعبير بلفظ (الجَعْل)، ولطيفةُ صَوْغِه ماضيًا:

مِن دلالات التَّعبير بـ (الجعل) في قوله: ﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ شيءٍ في ملكوته تعالى، وكلَّ عملٍ يُعمَل في كونه ﷻ، إنَّما هو بإذن اللهِ تعالى وتوفيقه وجَعْلِه، وأنَّه تعالى ما لم يأذن بشيءٍ مِن

كلُّ ما حصل، ويحصل قد قُضيَ به منذ الأزل في علم الله تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 154.

ذلك وغيرِه لا يكون، واللّهُ تعالى أعلم، وفي صَوْغ فعلِ الجَعْل ماضيًا في جملة ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ إيحاءٌ بأنَّه قد تحقَّق، وتمَّ، وقُضيَ به في عِلْم اللّه تعالى منذ الأزل.

وجهُ توحيد ضمير المفعول في: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، بعد ذِكْر الكتاب والإيمان:

القرآنُ والإيمانُ يتآزران في سعادة العبد الدُّنيويَّة والأُخرويَّة

مِن العلماء "مَن قال: إنَّه راجع إلى القرآن دونَ الإيمان؛ لأنَّه هو الَّذي يُعرَف به الأحكام، فلا جرمَ شُبِّه بالنّور الَّذي يُهتدى به، ومنهم من قال: إنَّه راجعٌ إليهما معًا، وحَسُنَ ذلك؛ لأنَّ معناهما واحدٌ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: 11]"[1]، وجْهُ توحيدِ الضَّمير في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ بعد ذِكر ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ و﴿ٱلْإِيمَٰنُ﴾ - وهما مثنى - الإيحاءُ بِتَلازمهما؛ إذِ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ يشتمل على بيان حدود الإيمان، وتفاصيل شريعتِه - من عبادات ومعاملات وأخلاق وآداب وغيرها، وتلك كلُّها لا حاملَ على تنفيذها، ولا مُنشِّطَ إلى تفعيلها في الحياة إلّا الإيمانُ، أو وُحِّد ضمير ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾، و﴿ٱلْإِيمَٰنُ﴾؛ لأنَّه قصَد به الخبرَ عن الكتابِ، أو لأنَّ أسماءَ الأفعالِ يَجْمَعُ جميعَها الفعلُ، كما يقالُ: إقبالُك وإدبارُك يعجبُني؛ فيوحَّدُ، وهما اثنان[2].

دلالةُ التَّعبير بالنّور، ولطيفةُ تنكيرِه في المفعول ﴿نُورًا﴾:

القرآنُ والإيمان وسيلةُ اهتداءِ الرّوح، كما أنَّ النّور وسيلةُ اهتداءِ الجَسَد

مفردة (النور) أبلغُ مفرداتِ اللُّغة في الدَّلالة على وسيلة الاهتداء والإرشادِ والاسترشادِ الحِسِّيَّيْن، ففي تشبيه الوحي الكريم بها إضفاءٌ لمعاني تلك الوسيلة وخصائصِها الحِسِّيَّة على الوحي في جانبه المعنويِّ الرّوحيِّ، وعلى ذلك: فالوحيُ الشَّريف - من القرآن الكريم والسُّنَّة الشَّريفة - أبلغُ ما تُحَصَّلُ به الهدايةُ في الإرشاد والاسترشاد المعنويِّ الرّوحيِّ، وفي تنكير ﴿نُورًا﴾ إيحاءٌ بعظَمة نورِ القرآن الكريم والسُّنَّةِ الشَّريفة وفخامتِه، وبالغِ أثرِه في الهداية

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 615.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 543.

والسَّلامة مِن تخبُّط النُّفوس وظُلمةِ الأرواح، و"بيانُه الَّذي بَيَّن فيه ممّا لهم في العمل به الرَّشادُ، ومِنَ النّارِ النَّجاةُ"(1)، "فإن كان المرادُ هو الإيمان، فهو نورٌ بالحُجَجِ والبُرهان، وهو كما ذكر: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزّمر: 22]، وإن كان المرادُ هو الكتاب؛ فهو نورٌ؛ لِما يَرفع جميعَ حُجبِ القلوبِ وسواترِها عمَّن اتَّبعَه، ونظرَ إليه بعين التَّعظيم"(2).

حكمةُ التَّعبير بمفردةِ الهداية في: ﴿نَّهۡدِي﴾:

مهمَّةُ الوَحْيِ هدايةُ النّاسِ والأخذُ بأيديهم إلى مرافئ السَّلامة في الدُّنيا والآخرة

في التَّعبير بمفردة الهداية في جملة الصِّفة ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ﴾ نصٌّ على وجه الشَّبَهِ المقصود من التَّشبيه في ﴿جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾، وتصريحٌ بمهمَّة الوحي الأولى، وأنَّها لهداية النّاس، والأخذِ بأيديهم إلى مرافئ السَّلامة ومَكامِن الأمان في الدُّنيا والآخرة، والهدايةُ هنا هدايةُ توفيقٍ وتسديدٍ ومعونةٍ؛ لأنَّها من الله تعالى، والمعنى: "نُرشِدُ به، ونُسَدِّدُ إلى سبيلِ الصَّوابِ"(3)، ومن أسباب الظَّفر بها اتِّباعُ الوحي الشَّريف والأخذُ به؛ وذلك سببُ النَّجاةِ إلى سبيل السَّعادة.

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿نَّهۡدِي﴾:

مـن جـدَّد الأخـذَ بالكتاب والإيمان؛ تَجَدَّد له الهُدى طولَ المَدى

وفي صوغ الفعل ﴿نَّهۡدِي﴾ مضارعًا دلالةٌ على ضمان تجدُّد ذلك الهُدى لمَن أخذ بالكتاب، والتزم الإيمانَ والشَّرعَ، وأنَّه لا يزال في حِصن حصين من أسباب الرَّدى ما استمسك بها، وفي ذلك دعوةٌ إلى كلِّ أحد يعقل أن يلتزم تعاليمَه.

نُكْتَةُ تقديمِ القيد ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول ﴿مَن نَّشَآءُ﴾:

في تقديم القيد بالجارّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول في جملة: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾، تنويهٌ بعظَمة الوحي الشَّريف،

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 542.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 144.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 542.

هدايةُ القرآن هي المعتمَدةُ بعد نزوله على الرَّسول ﷺ

وقوَّةِ أثرِه في هداية مَن يشاء اللّٰهُ تعالى هدايتَه، وأنَّ هدايةَ الكتابِ والإيمان السَّببُ الوحيدُ لِهداية الخَلْق؛ إذِ التَّقديم هنا يمنحُهما خصيصةً ليست لغيرهما في الهداية، وإن كانت الكتبُ السَّماويَّةُ السّابقة - قبلَ تحريفها - كُتُبَ هدايةٍ أيضًا، غيرَ أنَّه بعد بعثة الرَّسول ﷺ، وإنزالِ القرآن الكريم وشريعةِ الإسلام، صارت هدايتُه هي الهداية المعتَمَدة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: 85]، ثمَّ إنَّ القرآن الكريم أشملُ منها تفاصيلَ، وأرحبُ أحكامًا، وأدقُّ إحْكامًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48]، فضلًا عن أنَّه الكتابُ المُعْجِز، الخالدُ إعجازُه إلى يوم الدّين، فهو الأبقى وُجودًا، والأفصح بيانًا، والأبلغ عبارةً، ممّا يُؤهِّلُه للاختصاص بأن يَهْدِي ﴿بِهِۦ﴾ اللّٰهُ تعالى مَن يشاء مِن عباده.

لطيفةُ تقييد ﴿نُورًا﴾ بالوصْف ﴿نَّهْدِى بِهِۦ﴾:

القرآنُ الكريمُ ضمانٌ لتحقيق الهُدى لمن استمسكَ به

في تقييد المفعول الثّاني ﴿نُورًا﴾ بجملة الصِّفة ﴿نَّهْدِى بِهِۦ﴾ تقريرٌ لنورانيَّة الوحي الشَّريف وتمامِها؛ بحيثُ يضمن تحقيقَ غايته العُظمى من الهداية لمَن استمسك به، وفي الحديث الشَّريف: «فَقَد تَرَكْتُ فيكُم ما لَن تَضِلّوا بَعْدي إنِ اعتَصَمْتُم به كِتابَ اللّٰه، وأنتُم مَسؤولونَ عَنّي، فَما أنْتُم قائلونَ؟»، قالوا: نَشْهَدُ أنَّكَ قَد بَلَّغْتَ، وأدَّيْتَ، ونَصَحْتَ، فَقالَ بإصْبَعِه السَّبّابَةِ يَرْفَعُها إلى السَّماءِ، ويَنْكُبُها إلى الأرْضِ: «اللّٰهُمَّ اشهَدْ، اللّٰهُمَّ اشهَدْ، اللّٰهُمَّ اشهَدْ» ثَلاثًا[1].

معنى (الباء) في: ﴿بِهِۦ﴾:

الوحيُ الشَّريف سببٌ مُهمٌّ لهداية المهتدين

(الباء) في جملة الصِّفة: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ﴾ باء السَّببيَّة، فالوحي الشَّريف سببٌ مُهمٌّ لهداية المهتدين بإذن اللّٰه تعالى، فإنَّه كلمة اللّٰه

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (1218) باختلاف يسير، والنّسائيّ في السنن الكبرى، برقم: (3987).

تعالى الباقية في دُنيا النّاس إلى يوم الدّين، والله تعالى يجعله سببًا في هداية مَن يشاء هدايته.

مرجعُ الضَّمير في: ﴿بِهِۦ﴾:

الضَّمير في القيد ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ﴾ "يحتمل القرآنَ، ويحتمل الإيمانَ نفسَه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ [يونس: 9]، أي: يجعله بالإيمان مهتديًا، والله تعالى أعلم"[1]، وفي إطار استواء الاحتمالين يتَّضِحُ أنَّ أثرَ القرآن والإيمان كليهما في هداية المهتدين خطيرٌ، فليَلْتزِمْهما مَن رغب في الظَّفر بالاهتداء.

أثرُ القرآنِ والإيمانِ في الظَّفر بالاهتداء عظيم

علَّةُ التَّعبير بالموصول في: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾:

في مجيء مفعول ﴿نَّهۡدِي﴾ اسمًا موصولًا في جملة: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ إفصاحٌ لدلالات جليلة، منها: جملةُ الصِّلة بدلالاتها الوفيرة، ويفسح الموصول أيضًا لِدُخول عديد المهتدين ممَّن لا يُحاط بهم عدًّا، منذ الإيحاء إلى رسول الله ﷺ بهذا الوحي الشَّريف، وحتّى آخر الزَّمان؛ فلا يحتمل المقام هنا التَّعبيرَ بالاسم الصَّريح، ولا يَسَعُه إلّا الموصول الدّال على شمول عموم ﴿مَن نَّشَآءُ﴾.

الاسمُ الموصول أرحبُ دلالةً؛ وأوسعُ لِما لا يتَّسِعُ له الاسمُ الصَّريح

معنى ﴿مِنۡ﴾ في: ﴿مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ تبعيضيَّة؛ إذ إنَّ هدايةَ اللهِ تعالى تختصُّ ببعض عباده دونَ بعض، بحسب علمِه مَن يستأهلها ممَّن لا يستأهلها، ممَّن اختارها دونَ مَن كفر بها ورفضَها، وفي ذلك إلماحٌ لكثرة العباد كثرةً لا يُكتَرث معها لِمَن كفر بالله تعالى، وضَلَّ عن الدّين، وإن كان اللهُ تعالى غنيًّا بنفسه عن النّاس وعن الخَلْق جميعًا، ويُشْتَمُّ في ﴿مِنۡ﴾ معنى البيانيَّة أيضًا، ويدعم هذه الإشارةَ أنَّ مدخولها (عباد) لا (عبيد)؛

عبادُ اللهِ كثيرون، فلا يُكتَرث لِمَن كفر منهم، واللهُ غنيٌّ عن العالَمين

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 144.

لما اشتُهِر أنَّ (عباد) وصفٌ للمؤمنين الطّائعين اختيارًا بخاصَّة، وأنَّ (عبيد) عامٌّ لكلِّ النّاس طوعًا أو قهرًا، والمعنى على أنَّ ﴿مِنۡ﴾ بيانيَّة: نهدي به عبادَنا الَّذين اختاروا الإيمانَ على الكفر.

دلالةُ تعلُّق الهدايةِ بالمشيئة في: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾:

يدلُّ تعلُّقُ الهدايةِ وتوقُّفُها على المشيئة الرَّبّانيَّة أنَّ أحدًا لا يهتدي بدون توفيقه ﷻ، وإنِ اتَّخذ كلَّ أسبابِ الاهتداء فلا بدَّ له في سبيل طلب الهداية من أن يتعلَّق بكَرَم الله تعالى، وأن يتطلَّع إلى معونته وتوفيقه، وإلّا فلن يظفر بالهداية أبدًا، والعياذُ بالله تعالى.

لا يمكنُ لأحد أن يهتديَ إلّا بتوفيق الله تعالى ومعونته

وَجْهُ المضارعةِ في الفعل ﴿نَّشَآءُ﴾:

المضارعة في فعل المشيئة في قوله تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ تدلُّ على رحمة الله تعالى بالعباد؛ إذ إنَّه يوليهم أسبابَ الهداية، ويُجدِّد لهم العطاءاتِ، ويَمُدُّهم بالتَّوفيق مَدًّا متجدِّدًا لا يخفتُ، ولا ينقطع، وذلك بعضُ ما تنشره المضارعةُ في الفعل ﴿نَّشَآءُ﴾؛ فما أكرمَ ربَّنا ﷻ!

ما أكرمَ ربَّنا ﷻ؛ إذ يولي عبادَه أسبابَ الهداية! ويُجدِّدُ لهم أمدادَ التَّوفيق!

بلاغةُ حذفِ مفعول المشيئة في: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾:

شاع في الذِّكر الحكيم حذْفُ مفعول المشيئة الإلَهيَّة؛ لأنَّ مشيئته ﷻ نافذةٌ لا يعوقها عائقٌ، والمعنى: نهدي مَن نشاء هدايتَه؛ فدلَّ الحذفُ على طلاقة القُدرة الإلهيَّة، وأفاد أنَّ كلَّ شيء يجري في كونه ﷻ على وفق مشيئته، لا يَنِدُّ عنها شيءٌ، ومثلُ هذا الحذف لِمفعول المشيئة كثيرٌ في الكلام عمومًا[1]، وفي الذِّكر الحكيم بخاصَّة؛ لأنَّ الله ﷻ هو القادر على كلِّ شيء، فمُجَرَّد تعلُّقِ مشيئتِه بالأمر إيذانٌ بحصوله، والله تعالى أعلم.

مشيئةُ الله تعالى نافذةٌ بمجرَّدِ تعلُّقِها بالأمر

سرُّ الاكتفاء بذِكْر مَن شاء الله هدايتَهم، والسُّكوتِ عن مصير الآخرين:

صرَّح النَّظمُ الكريم في جملة: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 287.

بفريق المهتدين بتوفيق الله تعالى، وسكت عن الباقين، والتَّقدير: "فاهتدى به مَن شئنا هدايتَه، وبَقِيَ على الضَّلال مَن لم نشأ له الاهتداءَ، كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ [البقرة: 26]"[1]، فلم يتعرَّض لهم بذِكر، وفي ذلك اكتفاءٌ يُلمَح بطريق مفهوم المخالفة، أي: ومَن لم نشأ هدايتَه منهم يَضلّون، فيهْلِكون في الكفر والمعاصي، وفي ذلك إيحاءٌ بإهمال شأن مَن ضاع في مَهامِه الكُفر وأودية الضَّلال، وأنَّه ليس جديرًا بالانشغال به، أو بذِكر أخباره ومصيره.

مَـن ضـاع في أودية الضَّلال؛ فليس جديرًا بذِكر أخباره والانشغالِ بمصيره

دلالةُ استعمال لفظ (عباد) دون لفظ (عبيد):

استُعمل في قوله تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ لفظُ (عباد) دون (عبيد)، ومن وجوه التَّفرقة بين اللَّفظين ما ذكره الشَّيخ الشَّعراويُّ من قوله: "إنَّ الخَلْق جميعًا عبيدُ الله تعالى، المؤمنُ منهم والكافرُ، وإن تأبَّى الكافر على الله في الإيمان، فهو مقهور له تعالى في مسائل أخرى، كالمرض والموت وغيره، ثمَّ أعطانا الله تعالى مجالًا للاختيار؛ ليُثِيب مَن يُثيب بحقٍّ، ويُعذِّبَ بحقٍّ، والعبادُ هم الَّذين يخرجون عنِ اختياراتهم الممنوحة لهم من الله تعالى إلى مُراد الله سبحانه في الحُكم، وبهذا المنطقِ يكون الجميعُ في الآخرة عبادًا؛ لأنَّه لا اختيار لهم، ويستوي في ذلك المؤمنُ والكافر، يوم يقول سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]"[2]، وإيثارُ وصفِ (عباد) هنا يدعم هذا الاجتهادَ؛ لأنَّ المقام هنا مقامُ هدايةٍ يمنحها الله تعالى لمن يشاء من العِباد المؤمنين المختارين، وليس مقامَ محاسبةٍ لما قدَّمه العبدُ في حياته الدُّنيا؛ إذ وردت لفظةُ: (عبيد) في مثل هذه السّياقات القرآنيَّة، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: 182].

النَّـاس في الدُّنيا عبادٌ مختارون وعبيدٌ مقهورون، وفي الآخرة كلُّهم عباد لا يخيّرون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 153.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11040.

نُكْتَةُ الإضافة إلى ضمير العَظَمَة في: ﴿عِبَادِنَآ﴾:

تمسُّكُ العبدِ بكتاب الله تعالى وشريعتِه الخاتمة يمنحُه شرفًا وكرامةً

إضافةُ (عباد) إلى ضمير العظمة في ﴿عِبَادِنَآ﴾ يُضفي عليهم التَّشريفَ والتَّكريم، ويُلَوِّح بأنَّهم استأهلوا هذه الرُّتبةَ من الإضافة إليه ﷻ بأخذهم بهذا الوحي الكريم، وإن كان هو سبحانه الَّذي وفَّقهم إليه، وهداهم ﴿بِهِۦ﴾؛ ففضلُه عليهم أوَّلًا، وفضله عليهم آخِرًا، وبتمسُّك العبد بكتاب الله تعالى وشريعته الخاتمة يدخُل في ﴿عِبَادِنَآ﴾، وذلك سبيل الشَّرف والكرم، فاللَّهمَّ اجعلنا منهم يا كريم.

معنى (الواو) في: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾:

على مَن يمتلك أدواتِ الدَّعوة إلى الهُدى أن يُرشد النّاس إليه، ويدلَّهم عليه

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قد تكون استئنافيَّة، تستأنف خبرًا جديدًا، يخبر بواقعٍ، هو أنَّ الرَّسول ﷺ بهذا الوحي، وهذا الكتاب يهدي هدايةَ إرشادٍ ودلالةٍ وبيان - كما تفسِّره الآياتُ الأخرى.

وقد تكون (الواو) هنا عاطفة؛ إذ "لمّا أثبت الهدي إلى الله، وجعلَ الكتاب سببًا لتحصيل الهداية؛ عطف عليه وساطة الرَّسول في إيصال ذلك الهدي؛ تنويهًا بشأن الرَّسول ﷺ، فجملة: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ عطف على جملة: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾"[1].

معنى (إنَّ) في: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾:

الرَّسولُ ﷺ سببٌ أكيد في هداية مَن شاء اللهُ تعالى هدايتَه

(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ توكيديَّة، اقتضاها تقدُّم الإخبار بهدايته تعالى بالوحي الشَّريف مَن يشاء من عباده، وذلك يوهم أنَّ هداية الرَّسول ﷺ لا داعيَ لها، وأنَّها وعدمَها سواءٌ، فجاء توكيدُ هذا الخبرِ؛ لانتزاع ذلك الوهمِ الذي قد يتبادر، والمعنى: ومؤكَّدٌ - يا محمَّد - أنَّ دورك في الدَّعوة إلى الله تعالى هو توجيه النّاس وإرشادُهم ودلالتُهم على سبيل الحقِّ وفضائلِه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 154.

ومخاطرِ الضَّلال ومفاسده، وذلك سبب في هدايتهم الَّتي يشاؤها اللهُ تعالى لمن يهتدي منهم.

مرجعُ ضمير الخطاب في: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ﴾:

المخاطَبُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو الرَّسول ﷺ؛ لأنَّه المخاطَب الأوَّل بهذا القرآن المجيد، والمخاطَب الرَّئيسُ - إن جاز التَّعبير - بهذا الدّين، والمعنى: "وإنَّك يا محمَّدُ لتهدي إلى طريقٍ مستقيم عبادَنا، بالدُّعاءِ إلى الله تعالى، والبيانِ لهم"[1]، والظّاهر أنَّ هذا الخطاب لا ينسحب على جميع الدُّعاة مِن بعده ﷺ، إلّا مَن حذا حَذْوَه، والتزم حدود الدّين، كما أُنزلتْ؛ لأنَّ أحدًا لا يضمن أنَّه يهدي إلى صراط مستقيم على القَطْع، إلّا رسول الله ﷺ، لكِن المسلمون يجتهدون في أن يتمثَّلوا دعوتَه ﷺ كما دعاها، ويحاولوا ألّا يتزيَّدوا، أو يتنقَّصوا من الدّين في دعوتهم.

مَـــن اقـتـدى بالنَّبيِّ؛ نالَه من الإرشـاد للحقِّ نصيب

معنى (اللّام) في: ﴿لَتَهْدِيٓ﴾:

(اللّام) في جملة الخبر: ﴿لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هي اللّام المُزحلقة المفيدةُ للتَّوكيد، وهي تتآزر مع (إنّ) في توكيد الخبر: ﴿لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، بعد الإخبار بهداية الله تعالى: ﴿نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

الـرَّسـول قطعًا يهدي إلى صراط مستقيم

دلالةُ التَّعبير بالهداية في: ﴿لَتَهْدِيٓ﴾:

هدايةُ الرَّسول ﷺ أمَّتَه هدايةُ دلالةٍ على الخير وإرشاد إليه - أي: "لَتَدعو، أو لَتُبَيِّن لهم الصِّراط المستقيم"[2]، وهذه الهداية هي المقصودة هنا، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرّعد: 7] - لا دلالة على توفيقٍ ومعونة وتسديد؛ لأنَّ هذه من توفيق الله تعالى ومن

هـدايـةُ الـنَّـبـيِّ والـدُّعـاة هدايةُ دلالةٍ على الخير وإرشـادٍ إليه، لا هدايةُ توفيقٍ وتسديد

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 543.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 144.

عطاياه مَن يشاء مِن عباده، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: 56].

فائدةُ المضارعة في الفعل ﴿لَتَهۡدِيٓ﴾:

هَـذِي النَّبِيِّ نِبراسٌ وضّاءٌ لِحَمَلَة الدَّعوة من بعده

صَوْغُ فعلِ الهداية في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ مضارعًا يدلُّ على هِمَّته ﷺ في الدَّعوة إلى الله تعالى، وأنَّه لم يكن يَفتُر، ولا يَألو في ذلك جهدًا، وإنَّما ظَلَّ يُجدِّد الدَّعوة، ويُنوِّع أساليبَها؛ حرصًا على أن تُثْمِرَ ثمارها، ويبقى دورُ المضارع بعد رحيله ﷺ قائمًا في استحضار ذلك الجهد وتلك الهِمَّة؛ نبراسًا لحملة مشعل الدَّعوة من أُمَّتِه إلى يوم الدّين، وفي المضارعة إشارةٌ إلى خلود دعوته الشَّريفة ﷺ غَضَّةً مُتجدِّدة على صفحة الزَّمان؛ وذلك بِخلود القرآن الكريم الَّذي بَلَّغه الأُمَّة؛ فظَلَّ يُتلى، ويُعْمَل به آناءَ اللَّيل وأطرافَ النَّهار، وكذا بالسُّنَّة الشَّريفة الَّتي سنَّها على مدار اليوم واللَّيلة، في المأكل والمشرب والمَلْبس والمسكن وغيرها.

لطيفةُ حذفِ مفعول (تهدي):

دعـوةُ الرَّسـول عالميَّةٌ في إيصال الهُدى للنّاس

في حذفِ مفعول الفعل (تهدي) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾ توجيهٌ دقيق، هو أنَّ رسالة النَّبيِّ ﷺ رسالةٌ عامَّةٌ، مُنزَّلةٌ إلى قومه مِن العرب وإلى غير قومه من النّاس جميعًا، كما قال ﷺ: «وكانَ النَّبيُّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلَى النّاسِ عامَّةً»[1]، وفي ذلك دلالةٌ على عالَميَّة الدَّعوة المحمَّديَّة، والرِّسالة الإسلاميَّة الخالدة، فـ "حذف مفعول ﴿لَتَهۡدِيٓ﴾ للعموم، أي: لَتَهدي جميعَ النّاس، أي: تُرْشِدُهم إلى صراط مستقيم، وهذا كقوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١﴾ [البلد: 10 - 11]"[2]، و"حُذِفَ المفعولُ ثقةً بغايةِ

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (335).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 154.

الظُّهورِ"[1]، كما أنَّ في حذف مفعول الفعل (تهدي) توفيرًا لعناية السّامع على العِلْم بأنَّه، كما أنَّ القرآن الكريم يهدي، فكذلك الرَّسولُ ﷺ يهدي[2]، و"أنَّ الرَّسول صلواتُ اللّه وسلامُه عليه هو نورٌ مِن هذا النّور، وأنَّه مَعْلَمٌ من معالم الحقِّ، يهدي إلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم، وذلك في سُنَّتِه القوليَّة والعمليَّة، وهذا يعني أنَّ السُّنَّة المُطهَّرة - قوليَّة وعمليَّة - هي من هذا النّور السَّماويِّ"[3]، وفي ذلك غايةُ التَّشريف والتَّكريم للرَّسول ﷺ.

نُكْتَةُ استعمال التَّأكيد في خبَرين:

من مقتضيات توكيد الخبرِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ﴾ بمُؤكِّدَيْنِ أنَّه "مستعملٌ في تثبيت قلب النَّبيِّ ﷺ بالشَّهادة له بهذا المقام العظيم - فالخبرُ مستعملٌ في لازم معناه - على أنَّه مستعملٌ أيضًا للتَّعريض بالمُنكرين لِهَدْيِه ﷺ، فيكون في التَّأكيد ملاحظةُ تحقيقِه وإبطالُ إنكارهم، فكما أنَّ الخبر مستعملٌ في لازمين من لوازم معناه، فكذلك التَّأكيدُ بـ (إنَّ) مستعملٌ في غَرضَين مِن أغراضه، وكِلا الأمْرَين ممّا أُلْحِق باستعمال المُشْتَرك في معنييه"[4]، وقد سبق الإلماحُ إلى أنَّ تحقيق غرضَيْن متضادَّيْن في آنٍ واحد حُكم عامٌّ للذِّكر الحكيم، وقد ورد ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: 82].

مـن بـراعـة النَّظم الكريم تحقيقُه غرضَيْن متضادَّيْنِ في آنٍ واحد

معنى حرف الجَرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في الآية:

﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مستعملةٌ في معنى (اللّام)، أي: لتهدي النّاسَ، وتدلُّهم؛ ليأخذوا

الـرَّسـولُ ﷺ يـهـدي الـنّـاس لـيرتـقـوا مراقي العِزَّة والسَّعادة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 38 بتصرُّف.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 615.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 99.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 155.

بالوحي الشَّريف، وقد تُفيد ﴿إِلَىٰ﴾ معنى انتهاء الغاية المكانيَّة المجازيَّة[1]، فيكون المعنى: إنَّك لتهدي النّاس؛ ليَبلُغوا تمامَ الهدى، ويصلوا إلى أعالي معاني الوحي، فيَشرفوا بِشَرافته، ويرتَقوا مراقيَ العِزَّة والسَّعادة.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿صِرَاطٍ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

الإسلام طريقٌ واضح، وتنكيرُ الصِّراط أنسبُ بمقام التَّعريض

في التَّعبير بالـ ﴿صِرَاطٍ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة؛ إذ عبَّر بـ ﴿صِرَاطٍ﴾ عن "الإسلام، وهو طريق الله الذي دعا إليه عبادَه"[2]، و"التَّوحيد السّليم من زوايا الأغيار"[3]، فهو "دينٌ مستقيم"[4]، استقامتُه مقرَّرة، وتنكير ﴿صِرَاطٍ﴾ للتَّعظيم؛ ولأنَّ التَّنكير أنسبُ بمقام التَّعريض بالَّذين لم يأبهوا بهدايته[5]، وتعريضٌ بأديانهم المُختَلَّة، وعقائدِهم الفاسدةِ المُهترئة.

نُكْتَةُ وصفِ ﴿صِرَاطٍ﴾ بـ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾:

دينُ الإسلام بالغٌ في الاستقامةِ مبلغَ التَّمام

معنى ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: "شديد التَّقوُّم؛ لأنَّه كأنَّه يريد أن يُقَوِّمَ نفسَه، فهو بعد وجود تَقَوُّمِه حافِظٌ لها من أدنى خَلل، وهو كلُّ ما دعا إليه من خصال هذا الدّين الحنيف، الَّذي هو مِلَّةُ إبراهيمَ ﷺ"[6]، وفي التَّعبير بأصل الـ ﴿صِرَاطٍ﴾ دلالةٌ على استقامته، فإذا وُصِف مع ذلك بـ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ دلَّ دلالةً قاطعة على بُلوغِه في الاستقامة مبلغَ التَّمام، وأنَّ ذلك من المُقرَّر الَّذي لا يُشَكُّ فيه.

(1) قباوة، المفصّل، ص: 1725.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 544.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 62.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 544.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 155.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 373.

بلاغةُ التَّعريضِ في: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

في الإشـــادة بـهَـدْيِ الرَّسول ﷺ تـعـريـضٌ مُـؤلِـمٌ بضلال الكافرين عنه

في النَّصِّ على المفعول ﴿مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ تصريحٌ بذِكر الفريق الَّذي وفَّقَهُمُ اللّهُ تعالى إلى الهداية، وأعانهم، وسَدَّدَهم، فآمنوا بالوحي الشَّريف، وارتقوا في مراقي الإيمان حتّى صاروا ﴿عِبَادِنَاۚ﴾، وفي ذلك التَّصريح تعريضٌ بخذْلان الفريق الآخر من الكافرين الَّذين لم يَهتدوا، ولم يُسَدَّدوا، وأنَّهم هم المشؤومون المخذولون، فـ "في الكلام تعريضٌ بالمشركين؛ إذ لم يهتدوا به، وإذ كَبُرَ عليهم ما يدعوهم إليه، مع أنَّه يهديهم إلى صراط مستقيم"[1]، فإن كان النَّصُّ لم يذكرهم صراحةً؛ فقد ذكرَهم، وشَنَّع عليهم تعريضًا، بذِكْرِ المؤمنين المَوَفَّقين، وذلك يُؤْلِمُهم، ويُؤْذِيهم، ولعلَّه يُجْدِي فيهم، فيَسْلُكوا الصِّراطَ المستقيم، ويُؤْمِنوا بالدّين القَويم.

فائدةُ موقع: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾:

صـراطُ الرَّسول ﷺ هـو صـراط الله المستقيم

جاء قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ بدلًا من ﴿صِرَٰطٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وفيه مبادرة إلى نفي التُّهمة عمّا يدعو إليه الرَّسولُ ﷺ، وأنَّه إنَّما يدعو إلى ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك تزكيةٌ لدعوته ﷺ، وتقريرٌ لكونه مُرْسلًا بهذا الوحي الشَّريف، وأنَّ هذا الوحيَ يُمَثِّل صراطَ الله تعالى المستقيم، ودينَه القويم، فـ "الصِّراطُ الثّاني ترجمةٌ عن الصِّراطِ الأوَّل"[2]، و"أُبْدِلَ منه تعظيمًا لشأنه، بدلَ كلٍّ من كلٍّ، معرفةً من نكرة، لافتًا القولَ من مَظهر العظَمة إلى أعظم منه؛ إشارةً إلى جلالة هذا الصِّراط، بما فيه من مجامع الرَّحمة والنِّقمة ترغيبًا وترهيبًا"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 154.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 544.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 373.

دلالةُ إضافةِ ﴿صِرَٰطِ﴾ إلى الاسم الجليل في: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾:

الإضافةُ إلى الله فيها تشريفٌ وعظَمة وكمال وصَـــونٌ من النَّقص

في إضافة ﴿صِرَٰطِ﴾ إلى الاسم الجليلِ في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ تزكيَةٌ للصِّراط الَّذي يدعو إليه الرَّسول ﷺ، وأنَّه ﴿صِرَٰطِ﴾ قويم، محفوظ مِنَ الاختلال والاختلاف والقصور، "وإضافتُه إلى اللّه تعالى للتَّفخيم والتَّشريف"[1]؛ لأنَّ الاسم الجليل يُضفي عليه عظمةً وصيانةً من كلِّ نقص، ويمنحُه الكمالَ والجمالَ، ويُغري بالاستمساك به، و"تأكيدِ وجوبِ سلوكِه، فإنَّ كونَ جميعِ ما فيها من الموجوداتِ له تعالى خَلْقًا ومِلْكًا وتصرُّفًا، ممّا يوجِبُ ذلكَ أتمَّ إيجابٍ"[2]، كما "عُدِل عن إضافة ﴿صِرَٰطِ﴾ إلى اسم الجلالة ابتداءً لِقَصْد الإجمال الَّذي يعقبه التَّفصيل؛ بأنْ يُبدَل منه بعد ذلك ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾؛ ليتمكَّنَ بهذا الأسلوبِ المعنى المقصودُ فضلَ تمكُّنٍ، على نحو قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: 6 - 7]"[3].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ﴾:

الموصولُ يُفسِح الأسلـوبَ بما لا يستطيعُه الاسمُ الظّاهر

التَّعبيرُ بالموصول في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ﴾ يتيح ما لا يتيحُه الاسمُ الصَّريح، كما لو قيل: (صراط اللّه مالك السَّماوات)؛ وذلك لِما في الموصول هنا مِن إبهام مُشَوِّقٍ، وما يتيحُه من دلالة القَصْر بتقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾، وما يتيحُه من دلالة العموم في الموصول الآخر ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، إلى آخر تلك الميزات الَّتي يهيّئ لها التَّعبيرُ بالموصول دونَ سواه، ثمَّ دلالةُ الظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وإلى ذلك فـ "إجراءُ وصفِ اسمِ الجلالة باسم الموصول وصلتِه؛ للإيماء إلى أنَّ سبب استقامةِ الصِّراط الَّذي يهدي إليه النَّبيُّ بأنَّه صراطُ الذي يملك ما في السَّماوات وما في الأرض، فلا

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 52.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 38.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 155.

يَعْزُب عنه شيءٌ ممّا يَليق بعباده، فلمّا أرسل إليهم رسولًا بكتاب؛ لا يُرْتاب في أنَّ ما أُرْسِلَ لهم فيه صلاحُهم"[1].

معنى ﴿مَا﴾ في جملة: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

﴿مَا﴾ في جملة: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تتَّسِع لعموم المخلوقات الَّتي يعلمها النّاسُ، من السَّماوات ببروجها، وكثرةِ كواكبها ونجومِها، واتِّساع أفلاكها، والأرضِ بواسع بحارِها، وتَعدُّدِ أحيائها، ومُلوحةِ مياهها، وعُذوبةِ أنهارِها، وعظيم جبالها، وتنوُّعِ ثمارها، وكلُّ ذلك جدير بأن يَستَوقِفَ العبدَ، ويستثيرَ فيه البصرَ والبصيرةَ؛ ليلتمِسَ الحِكَم، وينتهي إلى الإيمان بالخالق العظيم ﴿ٱللَّهِ﴾ ﷻ، فيَثِقَ في ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾، ويَرتميَ في أحضانه، ولا يوليَه ظهرَه، وفي الجمع بين مِلْكِيَّة ما في السَّماوات وما في الأرض له ﷻ، في جملة: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دلالةٌ تدعم ضمانَ تلك السَّلامةِ للسّالكين؛ لأنَّه (صراطٌ) مُراعًى فيه جميعُ الحيثيّاتِ الَّتي يعلمُها السّالِكُ، والَّتي لا يعلمُها، ممّا ينفرد مُنزِلُهُ بالإحاطة بها؛ لذا كان وسيظلُّ أقومَ (صراطٍ).

سَـعَـةُ ملكوتِ الله تعالى يوفِّر للإنسان الثِّقةَ في دينه

معنى (ال) في: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ عهديَّة، أي: الأرض التي عهدْتُموها، ونَعِمْتُم فيها، وتقلَّبتم فيها، وفي التَّذكير بها وتحديدِها - مع العِلْم بها - مزيدُ تعنيفٍ، ومَزيدُ تبكيتٍ، على أنَّ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ "مطلَقةٌ على الدُّنيا"[2].

الأرضُ نعمةٌ؛ فينبغي الحذرُ من عصيان الله تعالى فيها

معنى ﴿أَلَآ﴾، وبلاغةُ التَّذييل بجملة: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ "تذييلٌ وتنهيَةٌ للسّورة بِختامِ ما احتوَت عليه من المجادلة والاحتجاج بكلامٍ قاطع جامع، منذرٍ بوعيد للمُعْرضين فاجع، ومُبشِّرٍ بالوعد لكلِّ خاشع، وافتتحت

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 155.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 206.

الجملةُ بحرف التَّنبيه لاسترعاء أسماع النّاس"[1]، و"توجيهِ الذِّهنِ وتنبيههِ إلى شيء مُهمٍّ يَجيء بعدَها، مُؤكِّدِ الوقوع عند المتكلِّم[2]، وما بعدَها جملةُ الختام: ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ حُكمٌ كبير خطير، يُبشِّر المؤمنين، ويتوعَّد الكافرين، ويقطع بصيرورة كلِّ العباد، وإفضاءِ جميع المآلات إلى الحَكَم العدلِ سبحانه، للحُكم الفَصْل في الآخرة، وإنَّما الأمورُ بخواتيمها، فليفعلْ كلُّ ما يحلو له، ويقطفْ ثمرتَه المُرتقبة.

الأمور بمآلاتها؛ فلْيفعلْ كلُّ إنسانٍ ما يشاء

نُكْتَةُ تقديم: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

تقديمُ القيد ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ على عامله ﴿تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ يعطي دلالةَ القَصْرِ الحقيقيِّ التَّحقيقيِّ، ويُقرِّرُ أنَّ صيرورتَها إلى وجهة واحدة لفصل القضاء، و"إن قال قائلٌ: أوَليست أمورُهم في الدُّنيا إليه؟ قيل: وإن كان إليه تدبيرُ جميع ذلك، فإنَّ لهم حُكّامًا ووُلّاةً ينظرون بينَهم، وليس لهم يومَ القيامةِ حاكمٌ ولا سلطانٌ غيرُه، فلذلك قيل: إليه تصيرُ الأمورُ هنالك، وإن كانت الأمورُ كلُّها له، وبيدِه قضاؤُها وتدبيرُها في كلِّ حالٍ"[3].

انقطاعُ الحُكم والسُّلطان في ذلك اليوم إلّا لله

دلالةُ إيثار الإظهار على الإضمار، في: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

كان من مقتضى الظّاهر أن يُضمَر الاسمُ الجليل، فيُقال: (ألا إلينا تَصيرُ الأُمورُ)؛ لأنَّه صريح في صدر الآية: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، غيرَ أنَّ النَّظم الكريم آثَر الإظهارَ، فقال ﷻ: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ وذلك لِما لاسم الجلالة من تأثير مُخيف، وجلالٍ مَهيب في مقام التَّهديد هذا، ربَّما لا يُؤدّيه التَّعبيرُ بالإضمار، فكان تكرارُه ظاهرًا في هذا المقام أبرعَ، إضافةً

التَّهديد وتربيةُ المهابةِ والإجلال لدى العبيد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 155.
(2) ابن هشام، أوضح المسالك: 2/ 25.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 544.

إلى أنَّه يخلع على المقام مهابةً وجلالةً، وقد آذَنتِ السّورةُ بالانتهاء؛ فحَسُن الإظهارُ تربيةً لتلك المهابة، وبخاصَّة أنَّها ختمٌ بِخَبرِ قَصْرِ المصير على أنَّه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى دونَ سواه، فمَن يُذكَر صريحًا، ويُجَلجِلُ اسمُه؛ إن لم يُذْكَر ﴿ٱللَّهِ﴾ ﷻ؟

معنى ﴿إِلَى﴾ في: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ غائيَّةٌ، تُفيد انتهاءَ الغايةِ، وتقرِّرُ أنَّها نهاية كلِّ حيٍّ، وأنَّ المحطَّة الأخيرة لكلِّ حَدَث من أحداث الحياة الدُّنيا إنَّما هي إلى الآخرة للحساب، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النّور: 39]، فصيرورةُ الأمور وإرفاؤُها إلى محطَّتها الأخيرة هنالك في دار الحساب عند الله تعالى، يوم ينادي سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: 16]، فيجيبُ نفسَه ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: 16]، "فيقضي فيها بقضائه العادل، وبحُكمه النِّهائيِّ الَّذي لا مُعقِّبَ له"[1].

محطُّ الأمورِ ونهايتُها إلى ما يقضيه اللهُ من ثواب المؤمن وعقابِ الكافر

بلاغةُ الاستعارة في فعل الصَّيرورة:

﴿ٱلْأُمُورُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ هي الأحداث والفِعال الصّادرة عن العِباد، بل هي العبادُ أنفسُهم، وتلك الأحداث والأفعال أشياءُ معنويَّةٌ، وحسابُ العِباد منوطٌ بها قطعًا، فجاء فعلُ صيرورتها مُجَسِّدًا لها على سبيل الاستعارة الكاشفة المُظهرةِ للحقائق، كما هي يومَ القيامة، "فيذهبُ تلبيسُ المُلَبِّسين، ويهونُ جبروتُ المُتَجبِّرين، ويُقِرُّ بالحقِّ مَن كان فيه من المُعاندين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: 22]، وقولِه: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123]"[2].

تَكَشُّفُ الحقائقِ في الآخـــرة، والجزاءُ منعقدٌ على ما ظهر

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 52.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 156.

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿تَصِيرُ﴾:

مَـــرَدُّ جـمـيـعِ أمـــور الـخَـلْـق إليه تعالى يومَ القيامة

المضارعة في الفعل ﴿تَصِيرُ﴾ تُصوِّر الواقعَ، وهو أنَّ الأحداث والحوادثَ تُفْضِي إلى غاية، هي آخِذةٌ طريقَها إليها الآن عبرَ قطعِ الدُّهورِ والأزمان، فـ "المضارعُ على ظاهره"[1]، و"المراد به الدَّيمومةُ، كقوله: زيد يُعطي، ويَمنع، أي: مِن شأنه ذلك، ولا يُراد به حقيقةُ المستقبل، أي: تُرَدُّ جميعُ أمورِ الخَلْق إليه تعالى يومَ القيامة، فيقضي بينهم بالعدل، وخُصَّ ذلك بيوم القيامة؛ لأنَّه لا يمكن لأحد أن يدَّعيَ فيه لنفسه شيئًا"[2].

دلالةُ التَّعبير بالصَّيرورة في: ﴿تَصِيرُ﴾:

الإشـــارةُ إلى سَـلْـبِ الأسباب الَّـتـي كـانـت للخَلْق في الدُّنيا

في التَّعبير بالصَّيرورة في جملة: ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ تصويرٌ لغويٌّ مُجرَّدٌ لِحركة الأحداث، وانطلاقِها إلى غايةٍ محدَّدَةٍ سلفًا، هي الانتهاءُ والوصول إلى دار الحساب، فـ "فيه وعيدٌ بالبَعْث المُسْتَلزِم للمُجازاة، ووعدٌ بنعيم الجنّات، فيُثيبُ المُحْسنَ، ويعاقبُ المُسِيء"[3]، و"الوسائطُ قدِ ارتَفَعتْ، والنّاسُ كلُّهم قد جُرِّدوا مِن حَوْلهم وقوَّتِهم؛ فقد سُلِبوا الأسبابَ الَّتي كانت لهم في الدُّنيا، وفي هذا من الوعد للمُهتدين إلى الصِّراط المستقيم بالثَّواب المُقيم والفوز العظيم، كما فيه من التَّهديد والوعيد بالعذاب الشَّديد للضّالّين المُكَذِّبين"[4].

بلاغةُ التَّذييل بجملة: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾:

في خـتـام سـوَر الـقـرآن يتحقَّق اتِّـسـاق المعاني مـع الـفـراغ من التِّلاوة

في ختم السّورة الكريمة بجملة التَّذييل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ يَلوح الوعدُ لِمَن عانق الوحيَ، وآمن به، وناصَرَ الدّين ورسولَه ﷺ، وسلك ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، ويقتربُ الوعيدُ لِمَن عانَد الوحيَ، وكفرَ به، وناهضَ الرَّسولَ ﷺ، وانحرفَ عن ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ تعالى،

(1) القِنَّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 12/ 322.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 352.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 12/ 324.
(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 780.

فهذه الجملةُ هي أنسبُ ختامٍ من حيثُ اتِّساقُ معناها مع الفراغ من التِّلاوة الشَّريفة؛ إذ يتلاءم الفراغُ من السّورة الكريمة مع انتهاء الأحداث وصيرورتِها الأخيرة إلى اللّه تعالى، ففي تنهيَةِ السّورة بهذه الآية مُحَسِّنٌ حَسَّنَ الختام[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 156.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"